جميلة بوحيرد في الشعر العربي

أ. حقوق فاطمة (جامعة سيدي بلعباس)

تعد الجزائر لؤلؤة إفريقيا وجوهرتها الثمينة ، وقد كانت محط أطماع دول كثيرة لما تزخر به من ثروات طبيعية وبشرية وموقع استراتيجي، وكانت فرنسا ترسم الخطط للاستيلاء عليها منذ زمن بعيد إلى أن وجدت في حادثة المروحة التي وقعت بين الداي حسين والقنصل الفرنسي فرصة سانحة لها، فزحفت بجيوشها على الموانئ الجزائرية وأطاحت بها الواحد تلو الآخر؛ ثم حاولت التوغل في الداخل.

دخلت فرنسا الجزائر بحجة جعلها دولة أكثر حضارة ومدنية مواكبة حركة التقدم الحاصلة آنذاك، بيد أن أول عمل قامت به هو سفك دماء أبناء هذه الأرض وقتل النساء وتشريد الأطفال وطمس الشخصية الإسلامية والقضاء على اللغة العربية، وحين شاهد الشعب صنيعها تسلح بالإيمان واقتفى بالأثر الصالح – حرب الرسول ضد الكفار – فاستجمع قواه ونظم جيوشه وقاوم المستعمر الفرنسي "فالثورة الجزائرية من زاوية تاريخية إنما هي فتح إسلامي جديد، فشعبها لم يقم بالثورة إلا تلبية لنداء عقبة وحيدر اللذين دعيا إلى الجهاد لتحرير الجزائر من ربقة الظلم والإستعباد والشرك، وإذا كان الثوار الجزائريون لا يملكون ما عند المستعمر من عتاد وسلاح وقوة تكنولوجية متطورة، فإنهم لا يجهلون خطورة ذلك، إلا أنهم بالمقابل يعتمدون على إيمانهم بالله منطلقين من أن الله سينصرهم ويغمرهم بعنايته، ومادام منطلق الثورة منطلقا دينيا إسلاميا فلا مناص من أن يكون مثلها الأعلى في معركها ما كان يجري من معارك وحروب في صدر الإسلام بين فئة قليلة مؤمنة وفئة كثيرة باغية"[1]

على إثر ذلك ظهرت ثورات شعبية كثيرة في مناطق متفرقة منها ثورة الأمير عبد القادر التي أفحكت الجيش الفرنسي وأجبرته على كشف أغلب أوراقه وخططه، وثورة الشيخ الحداد وبوعمامـــة وثورة المقراني وثورة لالا فاطمة نسومر التي جعلت المرأة

الجزائرية تدخل تاريخ الحروب، فالثورات الشعبية الجزائرية إنما هي استيحاء لمعركة بدر ومضاهاة لها، وفي ذلك يقول مفدي زكريا:

وحدثنا عن يوم بدر محمد فقمنا نضاهي في جزائرنا بدرا[2]

خلق الله الإنسان وجعل منه الذكر والأنثى كل له دور معين في هذه الحياة. وقد اعتنى الإسلام بالمرأة وقدّرها حق قدرها فمنحها حقوقا وجعل عليها واجبات وحررها من القيود التي كبلتها عهودا طويلة. فكان بحق أول ديانة أعادت الإعتبار والإنسانية للمرأة وليست المنظمات الدولية الأجنبية كما نسمع اليوم.

ولم تبق المرأة الجزائرية إبان الثورة التحريرية حبيسة البيت تنظف وتربي الأولاد وتطهو بل شاركت الرجل في جل أعباء الثورة، وهرعت ملبية نداء الله عز وجل راغبة في نيل أجر الجهاد، فالتحقت بصفوف المقاومة الوطنية تعرض خدماتها كل حسب قدرتها وطاقتها، ففريق منهن تكفل بإعداد الطعام وتنظيف الملابس للمجاهدين، والفريق الآخر اهتم بتمريض الجرحى والمصابين. وفريق قام بالعمليات الفدائية غير آبه بملذات الدنيا بفضل الثقافة الدينية والوطنية التي تشربوها من أساتذة وعلماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تصدت لمحاولات المحتل لفرنسة الجزائر، حيث سعت جاهدة إلى نشر الدين الإسلامي واللغة العربية، وفي هذا المقام أحيذ استعمال مصطلح الإستدمار بدل الإستعمار لأن فرنسا حين دخلت الجزائر قامت بتدميرها لا تعميرها.

لما اندلعت ثورة الفاتح نوفمبر كان على منظميها أن يتحركوا بسرعة وبكثافة وبدهاء كي يبهتوا اشتعالها ولا تخمد حتى يخرج المستعمر، وكان العنصر النسوي فيها حاضرا إذ قام بالعمليات الفدائية لسهولة تنقلهن، ومن أكثر الفدائيات صيتا وذكرا الفدائية " جميلة بوحيرد " التي ارتأينا أن تكون موضوع هذه المقالة.

آمنت جميلة بصدق ومشروعية الثورة الجزائرية فالتحقت بصفوف جيش التحرير الوطني، وباشرت عملها ضمن فريق الفدائيات فغيرت من شكلها وقصّت شعرها ولبست التنانير القصيرة لكي لا تثير الإنتباه أو الريبة، وقد ألحقت بالفرنسيين خسائر

بالغة، وأدخلتهم في حيرة، وزرعت الخوف والرعب في أوساط الفرنسيين لاسيما في الأماكن التي يتجمعون فيها مما جعلهم يقتفون أثرها، ويرغبون في القبض عليها.

وفي منتصف الخمسينات وقعت بطلتنا في شباك المستدمر فهز اعتقالها ومحاكمتها الرأي العام العالمي؛ إذ خرج النساء في مسيرات منددة بجرائم فرنسا ومساندة للشابة الجزائرية، ووضع المستدمر جميلة في سجن الماسيل، وهناك أذاقها أبشع أنواع العذاب وأكثرها وحشية، ويرصد لنا شاعر المرأة السوري "نزار قباني" صورة واضحة عن ما لاقته جميلة في السجن، كما يقدم بطاقة تعريفية لها لأن نضالها وصمودها جعلها جديرة بأن يعرفها ويردد اسمها كل إنسان فيقول[3]:

الاسم : جميلة بوحيرد
رقم الزنزانة تسعونـــا
في السجن الحربي بوهران
والعمر اثنان وعشرونا
عينان كقنديلي معبد
والشعر العربي الأسود
كالصيف .....
كشلال الأحزان

كانت جميلة تبلغ من العمر حين اعتقلت اثنان وعشرون سنة ذات شعر أسود، وعيون مضاءة بنور الثورة التي تحمل الأمل بغد مشرق تملؤه الحرية، ورغم وجودها بين أربعة جدران لم تيأس ولم تفقد صبرها، بل تجلدت بالإيمان وجعلت القرآن سراجا ينير ظلمته تقرؤه بصوت خافت تناجي فيه خالقـــــها. فكانت سورة (مريم) وسورة (الفتح)ورد لها تتلوهما يوميا فالأولى تعلمها الصبر والثانية تبشرها بنصر الله المبين.

إبريق الماء .....وسجان
ويد تنظم علـــــى القرآن

وامرأة في ضوء الصبح
تسترجع في مثل البوح
آيات محزنة الأرجان
من سورة (مريم) و (الفتح)[4]

جميلة هذه الفتاة العصامية التي عاشت حياة بسيطة وجادت بأثمن ما تملك وهي في ربيع عمرها، لم تغرها لذات الحياة ولا مودة العصر ولم تتشبه بغيرها، بل كانت هي نفسها شابة متشبعة بتعاليم دينها متيقنة من أحقية ثورتها، واثقة من أن النصر سيكون حليف هذا التعب لا محالة ومهما طال الزمن وأيا كان الثمن:

العمر اثنان وعشرون
في الصدر استوطن زوج حمام
والثغر الواقد غصن سلام
امرأة من قسنطينة
لم تعرف شفتاها الزينة
لم تدخل حجرتها الأحلام
لم تلعب أبدا كالأطفال
لم تغرم في عقد أو شال
لم تعرف كنساء فرنسا
أتعبة اللذة في (بيغال)[5]

جميلة المظاهرة العفيفة التي لم يستطع نزار أن يوقف حديثه عنها وجعلت قريحته تجود كعين متهمر في وصفها، فهي أجمل أغنية رنت في المغرب العربي وأطول نخلة مستقيمة ستعمر إلى الأبد، ووشتها المناضل بالنخلة لقدسية هذه الشجرة أوليست هي الجذع الذي استندت إليه سيدتنا "مريم العذراء" يوم مخاضها، كما يعجب الشاعر من قدرة جميلة على الصمود أمام كل هذا العذاب كأنها جبل شامخ راسخ لا تهزه الرياح، ومن ناحية أخرى يستغرب كيف يمكن لإنسان أن يأكل ويشرب من لحم أخيه الإنسان:

الاسم هو جميلة بوحيرد
أجمل أغنية في المغرب
أطـــول نخلة
تحتها واحات المغرب
أجمل طفلة
أتعبت الشمس ولم تتعب
يا ربي ..هل تحت الكوكب؟
يوجد إنسان
يرضى أن يأكل . . أن يشرب
من لحم مجاهدة تصلب[6]

سجنت جميلة في سجن الباستيل بالجزائر، وعذبت في أكثر منطقة لا تتحمل العذاب فقد كبلت من يديها بدل يديها أو قدميها، وفتش الوزير الفرنسي (لاكوست) جسدها ومعه أغلب حقراء فرنسا الذين ناقضت أعمالهم وجرائمهم مبادئ ثورتهم وشعارات رؤسائهم، فاستقووا بعد هزيمتهم النكراء أمام هتلر على امرأة ضعيفة مكبلة مصلوبة لا حول لها ولا قوة، دنسوا جسدها ثم جعلوه مكانا لإطفاء سجائرهم فملأه الدم حتى غمرها ليطهرها ويعدها بالتحرير:

(لاكوست) وآلاف الأنذال

من جيش فرنسا المغلوب
انتصروا الآن على أنثى
أنثى . . . كالشمعة مصلوبة
القيد يعض على القدمين
ودم في الأنف . . . وفي الشفتين
وجراح جميلة بوحيرد
هي والتحرير على موعد[7]

نصب الفرنسيون مقصلة إعدام بوحيرد وسط حشد من الناس وجردوها من ثيابها وعبثوا بها على مرآى من العشرات دون خجل أو حياء:

مقصلة تنصب ... والأشرار
يبهون بأنفى دون إزار
وجميلة بين مناديلهم
عصفور في وسط الأمطار
الجسد الخمري الأسمر
وحروق في الثدي الأيسر
في الحلمة . . . .
في .. في .. يا للعار [8]

وينهي الشاعر قصيدته التي رصدت حقائق كثيرة بمقطع جعل فيه بوحيرد رمزا للمرأة العربية اتجاهدة الثائرة التي تأبى الرضوخ والإنصياع للعدو الأجنبي، فجميلة دخلت التاريخ من بابه الواسع وسيحفر اسمها وانجازها في ذاكرة كل جزائري وعربي:

الإسم : جميلة بوحيرد
تاريخ تروبه بلادي
يحفظه بعدي أولادي
تاريخ امرأة من وطني
جلدت مقصلة الجلاد
امرأة دوخت الشمسا
جرحت أبعاد الأبعاد
ثائرة من جبل الأطلس
يذكرها الليلك والنرجس
يذكرها . . . زهر الكباد [9]

ويقال إن الشعر أساسه الإلهام الذي اختلف الأدباء في تفسيره ففي القديم زعم العرب أن " لكل شاعر شيطانا يلهمه الشعر، ويقول الشعر على لسانه، وأن هؤلاء الجن يجتـــــمعون في واد عبقر، رأنهم قبائل شتى"[10]، وبقيت هذه الفكرة هاجسا لدى نقاد الأدب الذين تنبهوا في آخر المطاف إلى ما تحدثه المرأة في كيان الشعراء، فلا يوجد باعث أقوى منها على إيقاظ الإلهام لذا " فقد أدرك الشعراء منذ أن تفتحت أعينهم على الشعر أن ليس أحق من المرأة بافتتاح قصائدهم وتصدير أشعارهم بجمالها، ورقتها وسحرها، فلقد كان للمرأة أثر كبير في إنتاج الأدب"[11]، وحيلة بجمالها ورطبتها وصبرها ألهبت قرائح الشعراء، فها هو الشاعر يحييها ويفتخر بها و يقدر عملها فيقول:

أختاه يا فخر النساء ومنبع الروح النقية
يا كنز إيمان ونبل وانتفاضات حييه
يا من بعثت من الرؤى والوهم روح الواقعية
أشعلت باللهب المقدس، بالمنى، بالشاعرية
و بكل معنى للحياة، مسارب النفس الخفية
فإليك يا عربية الأخلاق من قلبي التحية ....[12]

وفي موضع آخر يحاول الشاعر عبد القادر حميدة أن يصور لنا مراحل تعذيب جميلة الشريفة التي لم يضعفها التعذيب، بل زادها قوة وصلابة وإيمانا بقضية شعبها الذي آثرته على نفسها:

باسم كل الشرفاء ...
والأماني الوضاء
يا رئيس الدولة العجفاء في أرض فرنسا ....
دونما أدنى تحية .....
من فتاة عربية .....
تشرب الليل كؤوسا من عذاب ..
وسياطا من وحوش وكلاب ..

وحروفا فوق ظهري ...
وعلى وجهي وصدري ..
وعلى السافين والحصن المنيع ..
هتك الأوغاد عرضا سوف تحميه الدروع

****

اقتلوني.. واصنعوا ما تصنعون..
فهباء تسجنون ...
وهباء تشنقون ....
فالملايين على طول الطريق
جمرات تتلظى ... وحريق ..
وانتفاضات حياة
****

لك يا شعبي روحي ..لك حبي
من فتاة أرسلت للموت غيله...
من جميله.....[13]

ويجعلها صلاح عبد الصبور علما من أعلام وهران تتجمع الحشود حوله تستمد منه الطاقة لمواصلة الجهاد إلى أن يتحقق الانتصار المنشود:

عندما يسقط ذاك العلم الأحمر في تربة وهران الملهى
وهلال المفرق الأنور في الثلة يطوى ثم يرمى
ويكون الموت أحلى وهو مر
ويميل العود للأرض، ويهتز، ويأبى
ثم يهوي في ذرى الزيتون والكرم صريعا
فستلقاه التلال الخضر راية
عندما يجمع حوليه الجموعا

وستمضي خلفه حتى النهاية
نصرنا نصر الشعوب العربية [14]

جميلة أججت الشوارع وألهبتها حتى جعلتها تصرخ بأعلى صوتها "لا للاستعمار الفرنسي، نحن معك ومن ورائك نساندك ":

فوق الجزائر في حمـــــاك " جميلة" نحن التقينا من سنين طويلـــة
كنا وراءك حين ترمت على الأذى ورفضت أن تحيي هناك ذليلـــه
كنا وراءك حين سرت على اللظى واخترت من هول الكفاح سبيله
وحملت كالأبطال عبء كفاحهم مرا فما عزت عليك بطولـــه
ما كنت وحدك يا جميلـــة إنمـــا كانت وراءك ألف ألـــف جميله [15]

كثر ممن جميلة عبر الوطن العربي فكتبوا فيها قصائد كثيرة لو حاولنا رصدها كلها لملأت مجلدا بكامله، وما ذكرناه في هذه الصفحات ليس إلا غيضا من فيض، فجميلة شمعة أضاءت ظلمة شعبها، واحترقت لتذيب قيود المستعمر فكان لها ذلك، حيث رأت الجمل يجمع أشلاءه راجعا إلى جحره مطأطئ الرأس منكسر الكرامة، وكل ما عانته يوجورد تلاشى عندما رأت راية الجزائر ترفرف في ربوعها، فهي قد أدت واجبها وعلينا نحن شباب اليوم أن نتشبه بنساء تلك الأيام ونستخلص من إنجازاتهن ما يجعلنا نواصل بناء ما وضعوا أساسه، فعلينا أن نميز بين الجواهر والأصداف ونكون مع التاريخ والعصر على وعد[16]، وأختم هذه المقالة بهذه الأبيات للشاعر أحمد هيكل:

سوف تبقين قمة للبطولـــة وسيبقون بؤرة للرذيلـــة
لن تموتي .. لكن سنقضي فرنسا وسيشفي الأبي منها غليله
أنـــت يا أخت ، شعلة أضاءت ليرى شعبك الجميد سبيله
من ظلام الجحران أطلعت فجـــرا لاتنصر الأحرار دق طبوله
من جديب الأسى زفقت ربيعا فيه تلعب ألف ألف جميله

هكذا تســـــــــــــــــــــعد

الجزائر بالنصـــر وكل

الرغائـــــــــــــــــــــــــ

ـــــــــــــــب المأمولـــــه

ونغنيك

أغنـــــــــــــــــــــــــــــ

ـــــــــــــــــــــــــــــا

ت جميلـــــه

فـــــــــــــــتبقين قصة للـــطولـــــة [17]

الإحالات

[1] - يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا دراسة تحليلية، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط.1 ،1987م ، ص.87.

[2] - مفدي زكريا ، اللهب المقدس، ص.309.

[3] - عثمان سعدي، الثورة الجزائرية في الشعر السوري، منشورات وزارة المجاهدين، ص . 229.

[4] - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[5] - المرجع نفسه، ص .231.

[6] - المرجع نفسه، ص. 232.

[7] - المرجع نفسه، ص.233.

[8] - المرجع نفسه، ص.234.

[9] - المرجع نفسه، ص.235.

[10] - محمد صبحي أسعد أبو حسين، صورة المرأة في الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2005 ، ص ص . 107. 108.

[11] - المرجع نفسه، ص. ص . 108 . 109.

[12] - حسن فتح الباب ، ثورة الجزائر في إبداع شعراء مصر ، إشراف سليمان الشيخ ، الدار المصرية اللبنانية ، ص .83.

[13] - المرجع نفسه، ص . 183.

[14] - المرجع نفسه ص .175.

[15] - المرجع نفسه، ص .19.

[16] - ينظر ، مولود قاسم نايت بلقاسم ، أصالية أم انفصالية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص 79.

[17] - حسن فتح الباب ، ثورة الجزائر في إبداع شعراء مصر ، ص .171.